

الأدباء قد يكتبون بغضب لكنهم ليسوا عنيفين مطلقا

لا مقارنة بين الغضب والعنف في النص الأدبي

لا يمكن أن يكون الإبداع فعلا عنيفا، فالإبداع أيًا كان لا يشجع مطلقا على العنف ولا يروج له. أما ما يستشهد به البعض من إبداعات أدبية على أنها عنيفة تخوض في مواضيع صادمة ومرعبة لما فيها من عنف كبير، فإن في ذلك خلافا في التسمية، حيث يمكننا أن نسم هذا النمط الأدبي بالأدب الغاضب، وهو بعيد كل البعد عن العنف.



علي لفته سعيد
كاتب عراقي

هل بالضرورة أن يكون النص الغاضب نصا عنيفاً؟ إن الإجابة عن مثل هذا السؤال هنا ربما لن تكون باتجاه مستقيم واحد، وإن يكون في وسع الأجوبة العديدة أن تسير في اتجاهات متقاربة أو وفق خطوط متجاورة. فإذا ما اعتبرنا أن النص الغاضب يرتبط بالجرأة التي تحملها فكرة النص وحكايته أيضاً، ومن ثم الجرأة في عملية التدوين والإنتاج النهائي، فإن هذا لا يعني أن النص سيكون عنيفاً في طروحاته، وإن اقترب من أفلام المخيلة الأكشن مثلاً، تلك التي تزيد من دموية المشاهد ورعب التصوير.

الغضب في النص لا يعني العنف المجرى، لأن المنتج لهذا نوع من العنيفة في الكلمات لا يقبل الاندراج في هكذا توصيف، لكونه صانعا للجمال، والمنتج هنا يضع دائما خطوطا عريضة تحت التقسيمات الواضحة بين العنف والغضب، لأنه لا يريد إنتاج نص يعبر عن جزء من المجتمع بطريقة العنف، حتى لو كانت الفكرة المنتخبة هي فكرة عنيفة أو أن المجتمع كان عنيفا. كمن ينقل واقعا عن الحرب الأهلية أو جزءا من جريمة تبسعة أو محاولة استنطاق المسكوت عنه في العلاقة بين السلطة والشعب، فإنه لن يلجأ إلى العنف من أجل العنف، بل من أجل تبيان العنف في المجتمع عن طريق النص الغاضب.

الغضب ليس العنف

إن العنف في الحياة لا يرتبط فقط بالجانب الاجتماعي والإجرامي أو الجريمة التي تنفذ خارج نطاق القانون، بل العنف هو الذي تقوم به الجهات السلطوية التي ترتكز أساسا على من يملك القوة في هذا المجتمع أو ذلك. بعض الدول لها سلطة واحدة هي سلطة الدولة أو الحكومة حتى لو كانت دكتاتورية، وبعضها لديها أكثر من سلطة كسلطة الأحزاب، التي يمكن أن تنفرد منها الأحزاب الدينية التي تحصل دائما صفة الحكم، أو ما يعرف بالعنف الديني الذي صار مشهرا من مشاهد ما بعد التغييرات التي حصلت في بعض البلدان العربية، والتي أنتجت لها سلطة انتهجت عمليات العنف ضد المعارضين بطريقة عنف من تلك التي كانت تقوم بها الحكومات الطاغية قبل التغييرات العربية.



العنف ليس من شيم الأدباء (لوحة للفنان عمر إبراهيم)



العنف لا يمكن أن يصبح فعلا جماليا (لوحة للفنان سيروان باران)

سياسية، وهو بالتالي كما يقول سبينوزا من أن الإنسان محاط بوابل من القوى والمعاني التي تصطدم به كل حين، لكن رأيه بإمكان الإنسان بحسب سبينوزا أن "يحسن توجيه تلك القوى عن طريق العقل. فالعقل كقوة طبيعية أيضا، موكول له مهمة استيعاب اليات اشتغال الطبيعة وقوانينها وأسبابها. وهو ما يسمح بتقليل الانفعال السلبي وأخذ نحو الإيجاب".

وهنا تكمن قوة النص الغاضب أكثر من قوة النص العنيف، لكون الأخير هو نص لا يحتكم إلى العقل وصناعة الجمال، بقدر ما يحتكم إلى الغايات والأهداف. ولهذا فإنه من الممكن ربط النص الغاضب بردة الفعل تجاه العنف الموجود في المجتمع سواء كان فرديا أو سلطويا جرميا أو سياسيا.

النقد المتأثر بالنص

على الصعيد الآخر أو الجهة الأخرى للادب وهو ما أعني به النقد، حيث يذهب البعض إلى وجود نقد غاضب ونقد عنيف، وهو أمر طبيعي. فما بين الاثنين هو ما بين النص الغاضب والنص العنيف. فحين يوجد النص الغاضب يوجد الناقد الغاضب، وحين يوجد النص العنيف يوجد الناقد العنيف.

إن الناقد ملاحظ للنصين، ولكن الأكثر قربا للناقد الأدبي هو الأخذ بميزات النص الغاضب على اعتبار أنه نص يواجه التغييرات، في حين النص العنيف هو نص مسكون بالرغبة المسبقة للسلطة رغم أن البعض من النقاد يعتبر النص الغاضب هو نص العنيف، لكونه يسرد أو يذكر أو يتبنى موجبات النص غير المألوفة لفكرته أو حكايته أو تفاصيل ما يذكر عما كان، خاصة وأن الناقد كما يرى البعض أسير مدارس نقدية منهجية أو أنه متأثر بما هو قادم من مصطلحات ومقولات نقدية ذكرها البعض، وصارت لديه آراء قارة، حتى لو جاء آخر وفندها كما هو حاصل مع البنيوية كمثل وليس حصرا، والتي تراجع الاهتمام بها في العالم في حين ظل الكثير من النقاد العرب حتى الآن يفصلون النص على أساس هذه البنيوية.

إن السؤال الأكثر إلحاحا ربما يتولد من هذه المناقشة، هل حقا لدينا نقد غاضب ونقد عنيف؟ إن الإجابة هنا ستكون بالإيجاب، ويمكن اختصارها الشديد بعبارات مختارة، إنه حيث وجد النص وجد الناقد، وحين وجد أي النصين الغاضب أو العنيف وجد الناقد الغاضب أو العنيف.



لهوية العنف في النص الأدبي، بل عدو كل نص يواجه للسلطة أو يحمل جراته في سكب المعلومة العنيفة التي تحدث في المجتمع، على أنه نص عنيف، في حين أنه نص غاضب.

وحتى حين يذكرون نماذج من هذه الروايات أو النصوص سواء السردية وحتى الشعرية فإنهم يتبعون في ذلك الوصف الأقرب إلى التحليل المنطقي لهذا نصوص، على اعتبارها ردة فعل لعنف السلطة، التي يقع فيه منتج النص كفرد من المجتمع، خاصة وأن الغضب مرتبط بالحزن أو التمرد أو المواجهة، وهو أمر طبيعي في النفس البشرية في حين يرتبط العنف بالسلوك غير السوي، وهو أمر لا يختص به المنتج الأدبي باعتباره يمتلك جمالا وروحا تواقفة إلى صناعة الجمال، وعلى الرغم من الاستثناءات، فهي قليلة.

وما بين الغضب الذي يستدعي الاحتكام إليه في تفسير النصوص، فإن الأمر لا يقترب من النص الأدبي لكونه نصا لا يستدعي نصوصا أخرى من أجل مناقشتها بقدر ما يستفاد من هذا نصوص لإثارة الفكرة وصرعاتها وفعالها الدرامي، وهو أمر طبيعي أيضا في معرفة أن النص لا يتحرك وفق أهواء وغرائز نفسية، بقدر ما يتحرك وفق ظرف البيئي الذي ينتج هذه الأهواء من أجل رصفها في نص.

إن الوصف الغاضب لا يقترب من الوصف العنيف في النص، لأنه لن يكون هناك جمال محتكم إلى المخيلة أو أهمية وجود منتج النص في المجتمع، وسيكون أشبهه بنقل الحدث كما هو، أو ناقل العنف مثلما يراد نقله من قبل السلطات، خاصة وأن الغضب هو انعكاس لشئ حاصل في المجتمع.

وكما يقول ديكرات "إن حدوث الفعل في النفس يؤدي إلى حدوث انفعال في الجسد، والعكس صحيح"، لكن ما يراه سبينوزا غير ذلك حين عدّ "فعل النفس كصفة فكرية، يوازيه فعل جسدي كصفة امتدادية والعكس صحيح"، وما بين الفكريين أو التعريفين أو الوصفين يقبع النص الغاضب بوصفه يحمل الاثنين معا، فإنه انفعال لفعل، أي بمعنى هناك فعل ستكون له ردة فعل فيتحول من كونه محسوسا إلى ملموس.

منتج النص لا يريد أن يهزمه النص ذاته أو السلطة، ويريد أن يكون في مرتبة قادرة على إنتاج نص مؤثر في محيطه، لا يخضع لإعتبارات إنتاج العنف، لأنه حينها لن يختلف عن يصنع العنف من أجل السلطة والحفاظ عليها أو تمرير أجنداتها، سواء كانت دينية أو

بين التاريخ والواقع الحاضر، رغم أنه يستفاد منه في صناعة الصراع والفعل الدرامي لفكرة النص، أو زيادة غلة الصور أو الوصف في المتن النصي من أجل زيادة جرعة التشويق، لكون النص الأدبي أكثر جمالية من النص الناقل للأحداث بروحيتها وواقعيته وأصابعها.

النص العنيف هو نص لا يحتكم إلى العقل وصناعة الجمال بقدر ما يحتكم إلى الغايات والأهداف

هناك مقولة تنذرها ومفادها "العنف يبدأ واقعا، وينتهي نصا، ثم تاويل، وليس العكس" وهي حقيقة صادقة، لأن العنف يسبق النص سواء كان أدبيا أو غير أدبي، لكن ليس كل نص يعتمد على العنف، وليس كل نص غاضب يكون نصا عنيفا.

الجدلية بين الحالتين تقع في مفصلة القبول بأن ما ينتج من نص أدبي ما بعد التغييرات، هو نص غاضب أكثر منه نصا عنيفا، فالجدلية مع النص الأدبي أنه نص صانع للجمال، وليس ناقلا للواقع كما هو، لكونه، أي منتج النص، لا يقبل أن يكون مجرد مرآة ينقل ما يعرفه المتلقي، بل كي يسלט له الضوء على الأماكن التي لم يرها من قبل وسيرها من خلال النص، ولكن بطريقة المخيلة الجميلة التي تجعل المتلقي يجذب إلى الطروحات التي يحملها النص، على اعتبار أن لا نص لا يحمل فكرة فيها الكثير من الطروحات، سواء على لسان الراوي أو الشخصيات أو الهدف المسبب للحالة الغاضبة.

ورغم أن الكثير من المحللين والمفكرين وحتى المفسرين يربطون العنف بالحركات الدينية في كل الأديان والطوائف أو السياسية الراديكالية الباحثة عن السلطة، فإن النص العنيف هو نص تنتجه السلطات وما يتبعها ومن يؤلفها، وهي أيضا تنتج نصوصا من أجل التأثير على المتلقي الذي لا يريدون له أن يبقى فرادا، بل جمهورا ومجتمعاً للسيطرة على الأفكار وحركيتها وديمومتها.. وهو ما يعني أن النص الغاضب إنتاج سياسي فوق سلطوي ديني، والنص الغاضب هو إنتاج ثقافي توعوي معارض مواجهة وجرية.

هوية النص العنيف

ربما تكون إجابة البعض بأن هناك نصا عنيفا وخاصة في الرواية، ولديهم الكثير من الأدلة على وجود روايات من هذا النوع، فهو أمر طبيعي، لأنه لا تحديد